الفصل العاشر

عصر المماليك

لقد كان عصر المماليك بالنسبة للقبائل العربية التي استوطنت مصر امتـــداداً للعصر الأيوبي، مع الفارق المتمثل في رفض هؤلاء العربـــان لحكـــم المماليـــك؛ بدعوى أنهم عبيد قد اشتروا من أسواق النخاسة، فكيف لهم أن يتحكموا في مصائر هؤلاء العربان الأحرار النبلاء، ومن ثم اتحدت القبائل العربية كلها وثارت علـــى حكم المماليك منذ اعتلاء المعز أيبك التركماني للسلطة عام (١٢٥٠)م، مما دعا هذا الأخير إلي تجييش قوة من (٥٠٠٠) فارس لمحاربة البدو في دهـــروط[١]، حيـــث تغلبوا عليهم واستولوا على خيولهم وأسلحتهم، غير أن التهديد الذي مثله المغـــول للعالم الإسلامي والأخطار التي كانت قد أحدقت بسوريا من جراء عدوان المغـــول عليها، وأجبرت المماليك على مهادنة العربان والالتجاء إليهم لمحاربة المغول هـــو الأمر الذي حدث في عصر المظفر قطز (٦٥٧-٦٥٨هـ/١٢٥٩-١٢٦٠م)، حيث جمع عربان الغربية والشرقية وضمهم إلى جيشه الذي قهر المغول في معركة عين جالوت الشهيرة، واستمرت علاقات الطرفين بين شد وجذب طوال عصر الظـــاهر بيبرس (٦٥٨-٦٧٦هـــ) الذي حارب العربان، واستفاد منهم في حروبه وغزواته كذلك، وهو ما حدث أيضا في عصر ابن قلاوون رغم تقربه لهم وموادعتهم، ولقد لعب بدو مصر دورهم في سياق الأحداث العديدة التي وقعت في مصر منذ ذلـــك التاريخ حتى ظهور المماليك الشراكسة بقيادة الظاهر برقوق في سنة (٧٨٤هـــ - ١٣٨٢ م)، حيث لم تتغير الأمور كثيرا عن سابقتها بالنسبة للعربان، فقد تواصلت الحملات ضدهم وإن كانت بدرجة أقل ولكنها أخذت شكل العمليات البوليسية التـــي

---

[١] بليدة على شاطئ غربي النيل من ناحية الصعيد قرب البهنسا، وهي الآن تابعة لمركز مغاغة إحدى قرى محافظة المنيا. معجم البلدان، ٢/ ٦٣٣.

أدت في نهاية المطاف إلى إضعاف هؤلاء العربان وتشتتهم، وتفاقم عمليات القهر ضدهم، والزَّج في السجن وإعدامهم شنقاً.

وقد كانت المواجهة محتومة الوقوع بين الطرفين، وظهر دهاء المماليك في تحركهم لضرب البدو في عقر دارهم في الوجه القبلي، ودارت المعركة في دهروط؛ ثم تحولوا بعد ذلك إلى الوجه البحري، ودارت رحا المعارك في سخا، ولم يخرج البدو من هاتين المعركتين منتصرين، بل بالعكس، فإن عام (٦٥١هـ-١٢٥٣م)، كان بداية لأظلم فترة في تاريخهم، فإن المماليك قد سحقوا البدو وقضوا عليهم ماديًا وسياسيًا وإداريًا ومعنويًا.

١- **فماديًا**: يتمثل ذلك في المذابح الرهيبة التي وقعت على وجه الخصوص في عام(٧٠١ هـ - ١٣٠٢م) ضد البدو النازلين بين الجيزة وقوص، وبعدها في عام (٧٥٤هـ -١٣٥١م) ضد بدو الصعيد مرة أخرى، مع إضافة من هلك منهم فعلا خلال معركة دهروط، كما أن مثيلاتها التي وقعت في سخا قد قللت بدرجة كبيرة من بدو الوجه البحري، أما عن البدو الذين بقوا على قيد الحياة بعد هذه المجازر فإن السرد الممل لأعمال القمع التي قام بها المماليك طوال سَلْطَنَاتهم المتتابعة ويظهر بوضوح لماذا فضلت القبائل التي لم تكن لديها نزعة الترحل والبداوة أن تبتعد وأن تتوغل في الصحارى هرباً من هؤلاء المماليك، ولكي لا يخضعوا لشريعتهم القاسية.

٢- **وسياسيًا**: فإن الوضع بالنسبة للبدو لم يكن أفضل؛"فلا ناقة لهم ولا جمل"في تصريف أمور البلاد، فهم كما يقول العمرى:"لم يكونوا في الذروة ولا في السنام عند السلاطين"، زد على ذلك أنهم لم يكن في استطاعتهم الوصول إلى **الوظائف العامة كوظيفة الوالي مثلا.**

٣- **وإداريًا**: فإن المماليك قد اتخذوا من التدابير ما يكفل لهم إخضاع البدو والسيطرة عليهم، فقد كان السلاطين المماليك يثبتون أمر القبيلة بإصدار التقليد اللازم من ديوان الإنشاء مشفوعا بالوصية كما كانت التقاليد تصدر بتعيين مقدمي

العربان، وكانوا يهتمون كذلك بمشيخة البدو في أنحاء البلاد، وربما كان من العلامات المميزة أن نرى السلطان وهو يستقبل أمير العربان ويخلع عليه الخلع والتشاريف في الوقت الذي تقوم فيه تجريدة عساكره في تقتيل عربان قبيلته دون هوادة تطبيقا للأوامر التي سبق أن أصدرها السلطان المملوكي المعز أيبك والقاضية بمعاملة البدو بكل بأس وقوة.

٤- **أما معنويًا**: فربما كان من المهم أن ننبه هنا إلى الوضع القانوني الذي ألصقه المماليك بالبدو، هذا الوضع لا يخرج عن كونهم غرباء عن مصر، فقد كان رؤساء القبائل إذا تصادف قيامهم بزيارة إلى القاهرة، فإن المماليك كانت تنزلهم دار الضيافة وهي نفس الاستراحة الرسمية التي كان ينزل بها السفراء الأجانب والزوار للأجانب عند زيارتهم لمصر، وكانوا كذلك يستقبلون من طرف المهمندار، كما كان يحدث بالنسبة الأجانب والغرباء. وبمعنى آخر فإن المماليك كانوا ينظرون إلى البدو على أنهم جسم أجنبي عن مصر، وربما كان البدو لا يقلون في ذلك عن هذا الجسم الأجنبي الذي كان يمثله المماليك أنفسهم، مع الفارق بأن البدو يتشرفون بالانحدار من نسب عربي مؤثل، وبأنهم رجال أحرار وشرفاء ، ويمكن تفسير سياسة المماليك حيال البدو طبقا لوجهة النظر هذه، لقد بيت المماليك النية على أن يحتفظوا لأنفسهم بالمكاسب التي منحتهم إياها انتصاراتهم العسكرية على القبائل، وذلك بشتى الطرق، بما في ذلك معاملتهم معاملة الغرباء النازلين أرض مصر بطريق الصدفة أو بشكل مؤقت، وبناء على ذلك فإن المماليك في كل ما يخص شئون البدو لم يتعاملوا إلا مع أمراء القبائل الذين كانوا يتبادلون معهم المراسلات التي كانت تخرج من ديوان الإنشاء، تلك المراسلات التي دفعت القلقشندي إلى شرح معاييرها واستعمالاتها الخاصة في موسوعة"صبح الأعشى في صناعة الإنشا"، وما تبع ذلك من ذكره لتلك الكمية الهامة من المعلومات عن البدو.

أما من ناحية أخيرة فإن المماليك هم المسئولون عن الصورة التي ظهر بها البدوي، وهي صورة غير مشجعة كلها سمات سلبية، فقد قام المماليك بتقديم صورة

سيئة عن البدو وعمدوا إلي تشويهها وإظهار سلوكهم العادي الذي لا مفر منه على أنه لا شيء سوى حب النزاع والثأر، نظرا لثورات هؤلاء البدو التي كانوا يقومون بها مضطرين من أجل الاعتراض على المعاملة التي كانوا يلقونها على يد السلطة أو من أجل الاقتصاص لأنفسهم، ولكننا وعلى ضوء تاريخ هـؤلاء البـدو خـلال الستمائة وخمسين عاماً التي أمضوها في مصر، وقبل وصول المماليك لم نعد نتقبل هذه الصورة الكاريكاتورية بحذافيرها التي أراد المماليك إلصاقها بالبدو، وإنه لمن الصعب بالنسبة لبدو مصر الذين زرعوا الأرض الجرداء في الدلتا وعلـى تخـوم وادي النيل، والذين أدخلوا قصب السكر إلي البلاد، أن نرميهم بأنهم أعداء للزراعة أو بتهمة المخربين للقرى والمحاصيل ، كما أنه من السخف كذلك أن ننعت هؤلاء البدو الذين تولوا حراسة الطرق الـصحراوية، وأرشـدوا المـسافرين والحجـاج والجيوش في هذه المسالك ووسط سكون الصحراء ووحشتها بأنهم لصوص وقطاع طرق بالوراثة، كما أنه من الصعب كذلك أن لا نعترف لهؤلاء البدو الذين اتهمـوا بأن لا حضارة لهم مع أنهم يتمتعون بأخلاقيات مميزة تقوم على احترام الإنـسان، وعلى احترام الروابط التي تربط البدوي بأهله وعشيرته، وعلى احترام كلمته إذا ما وعد بالإضافة إلى ما يتمتع به من قيمة في المعارك، ومن شجاعة ومن خضوع تام إلى الله، ولا شك أن هذه كلها قيم أدبية أخلاقية عالية، لا مراء فيها.

أما الوجه الآخر للعملة، فمن الصحيح أن البدوي في مصر قد مارس أنواعا مخيفة من الأخذ بالثأر والانتقام، ولكن هل كان في ذلك هو وحيـد عـصره فـي اعتبار الموت هو الوسيلة الوحيدة الممكنة للقصاص وألم تكن الوحشية هي الأمـر العادي السائد في جميع أنواع تسوية الحسابات في ذلك العصر، الذي ظلـت فيـه الحياة فظة وشاقة بالنسبة لمعظم الناس؟ ولا يمكننا أن ننكر أن البدو كأية مجموعة بشرية أخرى، لم تكن تضم بين صفوفها عددا من مثيري الشغب والقلاقـل، ولقـد اتبع بنو هلال وبنو سليم هذا الطريق عند وصولهم إلى مصر مع القرامطة، فكـان هدفهم بعد خروجهم من جزيرة العرب الحصول على الغنائم والمكاسب مهما كانت

الوسيلة، وقد كان هذا على وجه التدقيق هو أحد الأسباب التي دعت الوزير اليازوري إلى التخلص منهم، ليضع حدًا لاضطراباتهم وقطعهم للطرق، وهي الأعمال التي ما فتئوا يرتكبونها في الوجه القبلي وفى الصحراوات المجاورة، أما أنهم قد سلبوا ونهبوا إفريقية (الشمال الإفريقي) فإن هذا ليس موضوعنا هنا، ولكن ينبغي علينا أن نلاحظ أن ما اتسمت به عاداتهم من عنف وشدة يتعارض مع السلوك الاعتيادي لغالبية سكان البدو عند توقفهم في مصر، ولقد نجم عن سياسة المماليك التي اتبعوها حيال البدو أمر هام لم يكن في حسبانهم: لقد تحول البدو إلى حالة الاستقرار والتحضر، وإن لم يكن جميعهم ، فعلى الأقل جزء كبير منهم – وذلك بعد أن تبددت أمامهم ضرورة الاختيار بين بداوة معذبة ومضطهدة وبين استقرار محتمل ومتسامح فهم قد أدركوا ما صنعته بهم مصر وترتبها، التي حولتهم إلي أناس مستقرين، فإنه لا يغيب عن أذهاننا أن ثروات هؤلاء قد ظلت ثروات خيالية، وذلك دون حاجة إلى التحدث عن آثار واقع حالة التحضر التي دفعتهم إليها حاجتهم إلى استصلاح الأراضي طوال ما يزيد على خمسة قرون، وما تسبب عن ذلك من نتائج خضعوا لها بطريقة لا شعورية إلي الدرجة التي أصبح عندها عدد كبير من هؤلاء البدو لا يرون في أنفسهم سوي أنهم قد صاروا مصريين.

ولم يخلِّص العرب من هذه الحلقة الجَهَنَّمية سوي غزو العثمانيين لمصر في سنة (٩٢٢هـ-١٥١٧م) الذين اتبعوا سياسة التهدئة والمصالحة حيال القبائل العربية، بل وصل الأمر بالسلطان سليمان (٩٢٨هـ) أن أرسل إلي رؤساء بعض هذه القبائل الحرير رمزا للمحبة والسلام، وهو الأمر الذي لم يعرفوه أو يتذوقوه طوال ثلاثة قرون من الحكم المملوكي، ومن ثم انصهر البدو العرب منذ ذلك الحين في البوتقه المصرية التي استوعبت غيرهم من الأجناس المتعددة من أكراد وشركس وترك وقوقاز، وغير ذلك من الأجناس التي اتخذت مصر ملاذاً لها، بل مقاماً وموطناً.